مقاربات لغوية بين الدلالات المعجمية والدلالات السياقية في(القرآن الكريم) لفظ (رجم، وسَوَّد، انفجر، ويخصِّمون، سنابل، وعين) أنموذجاً.

د. قاسم مهدي أحمد قاسم النفيعي
كلية التربية، والعلوم التطبيقية – ريمة – جامعة الحديدة

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى دراسة **مقاربات لغوية بين الدلالات المعجمية والدلالات السياقية في (القرآن الكريم) لفظ (رجم، وسَوَّدَ، انفجر، ويخصِّمون، سنابل، وعين) أنموذجًا**، لما لهذه الدلالات من أهمية كبيرة في بناء النص، واتّساقه وانسجامه في ضوء السياق القرآني والسياق المعجمي، وقرائنهما. ومن هنا أظهر السياق القرآني قدرة تلك الألفاظ على قيامها بعدد من الوظائف الدلالية، حتى إنه لتأتي اللفظة بدلالة في السياق وتأتي بالدلالة المقابلة في سياق آخر، وهذا ما يرد في ضوء السياق المعجمي، بل قد تحمِّل اللفظة الدلالة وما يقابلها في السياق نفسه، وفي هذا كله انزياح عن المعنى المعجمي.

ومن هُنا نلحظ أن البحث قد استوى على مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث وخاتمة، ففي **المبحث الأول:** وقفنا على تحليل لفظ: (**رجم، وسَوَّدَ**)، في حين وقفت في **المبحث الثاني:** على تحليل لفظ: (**انفجر، ويخصِّمون**)، أمّا **المبحث الثالث:** فقد وقفت فيه على تحليل لفظ:(**سنابل، وعين**)، وأمّا **الخاتمة:** فتتضمن أهم النتائج التي توصل إليها البحث فضلاً عن خلاصة موجزة لأهم ما جاء في البحث. ونذيله بتوصيات وثبت المصادر والمراجع.

مقدمة:

لك الحمد والنعماء والملك ربنا فلا شيء أعلى منك جدٌ ولا مجدُ
مليكٌ على عرش السماء مهيمنٌ لعزته تعنو الوجوهٌ وتسجدُ
والصلاة والسلام على معلم البشرية، محمد صل الله عليه وسلم، أما بعد:

تميل الدراسات الحديثة في معالجاتها للنصوص الإبداعية إلى الاهتمام بالجوانب الدلالية أكثر من غيرها، من خلال تتبع أداء المنشئ وطرقه في توصيل المعنى إلى المتلقي، ولاشك أن سمو الدلالات في النصوص القرآنية الشريفة، أوجدت باعثًا قويًا لدى الباحثين في كشف رموز تلك الدلالات المتجددة وصورها الإيحائية المضيئة عبر العصور، من خلال استنطاق آياتها وتعميق الرؤى في معانيها الباعثة على التدبر والتمحيص وتطوير أدوات الباحث بما ينسجم والمرحلة التي يناقشها.

وعلى الرغم من أهمية الدلالات المعجمية، والدلالات السياقية للمفردات اللغوية، تحديدًا في القرآن الكريم، لتحديد المعنى، وتوجيهه، فالدراسات حول هذا الموضوع ما تزال قاصرة، لحدٍ ما، إذ عنيت بالجانب النظري أكثر من عنايتها بالجانب التطبيقي.

ولذا اتخذ من المفردات اللغوية في القرآن الكريم، ميدانًا للدراسة والتطبيق، والتي تكمن في عدد من الأسماء، والأفعال، تحت عنوان **مقاربات لغوية بين الدلالات المعجمية والدلالات السياقية في (القرآن الكريم) لفظ:(رجم، وسَوَّدَ، انفجر، ويخصِّمون، سنابل، وعين) أُنموذجًا.**

ومن جهة أخرى نطمح إلى لفت أنظار الباحثين إلى أهمية الدلالات المعجمية، والسياقية في تحليل المفردات اللغوية، وتوجيه المعنى، وبيان خطورة إغفالها، إذ تُفهم معاني المفردات من السياق، لأول مرة على عكس ورودها في المعجم؛ لأن كثيرًا من الأخطاء في تحليل المفردات اللغوية، ولا سيما في فهم مفردات القرآن، سببها إهمال مراعاة سياق المفردة اللغوية.

والمفردة القرآنية لها مزية لا تجدها في الكلمات التي تكون منها كلام الناس وتعابيرهم فمهما سمت مدارج البلاغة، والبيان. إن المفردة القرآنية تتناول من المعنى سطحه، وأعماقه، وسائر صوره، وخصائصه، ولا تقف عند العموميات، التي تقف عند حدود تعبيراتنا البشرية، التي تعاني من العجز)، وأن هذه المفردة تمتاز عن سائر مرادفاتنا اللغوية، بتطابق أتم مع المعنى المراد،

ومهما استبدلت بها غيرها لم يسد مسدها، ولم يغن غناءها، ولم يؤد الصورة التي تؤديها.

أسباب اختيار البحث وأهدافه:

أولًا: إن دراسة دلالات المفردة اللغوية في القرآن الكريم، ما تزال بها حاجة إلى مزيد من التعمق، والتوسع، والإثراء لفتح مجالات بحثية جديدة، لإثراء موضوعات القرآن الكريم العلمية. ومن ثم فإن هذه الدراسة، تُعد لبنةً معرفيةً في الدرس القرآني العظيم، ليثري جانبه، ويعمق أبعاده.

ثانيًا: إن شغفي لكبير بالدراسات اللغوية ذات الصلة بالقرآن الكريم، وفي مجالات البحث القرآني لنضيف بهذا العمل المتواضع لبنة معرفية، جديدة مختصة بالدرس اللغوي القرآني. ومن ثم كان هذا عاملًا أساسيًا في اختياري لهذا الموضوع. وكذا حبي لكتاب الله أولًا، ولدراسة معانيه ثانيًا.

ثالثًا: الوصول إلى بيان معاني وأسرار الدلالات المعجمية، والدلالات السياقية، في القرآن الكريم وتجذرها في إطار التأصيل المعجمي، والسياقي، والتاريخي.

وأخيرًا: المساعدة في رصد التحولات والتغيرات التي طرأت على بعض المفردات اللغوية، في الحقل المعجمي والحقل القرآني في إطار السياق.

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهجين الاستقرائي والوصفي للمفردات اللغوية القرآنية، وسيقوم بعملية التحليل والتفسير الدلالي المعجمي، والسياقي للمفردات، تارة في دراسة الدلالات المعجمية، والسياقية وغيرها، وما مرت به من تطورات وتغيرات في سياقها، ودلالتها، ومعرفة ما أضاف السياق القرآني، والدلالات الجديدة للمفردات المعجمية، وتارة أخرى سيعمد البحث في منهجيته في تحليل دلالة القرآن إلى منطوق النص القرآني، ودلالته، وما تحمَله السياقات القرآنية من معاني ودلالات جديدة، مستكشفًا كل ما هو جديد في القرآن وبديعه.

التمهيد:

أصبحت المقاربة ظاهرة تدرس اللغة في أحضان الركام المعرفي الذي اتخذ السياق دعامة لفهم الدلالة ومقتضيات الخطاب. ففي الوقت الذي قطعت فيه البنيوية أشواطًا لتفسير الظاهرة اللغوية تفسيرًا تم فيه اقصاء العنصر السياقي في التحديد المنهجي للظاهرة الدلالية واللسانية، كما ظل الوضع لدى المدرسة

اللسانية الأمريكية مع سكينر، العالم اللساني النفسي، وهاريس المحلل اللساني واضع أسس تحليل الخطاب، ظهرت مقاربات جديدة في فرنسا وانجلترا أعادت الاعتبار للظاهرة السياقية، وجعلت منها محور التفكير الإنساني الذي يتجلى بوضوح في اللغة؛ ومن هذه المقاربات نظرية الأفعال الكلامية (speech act theory) التي وضع أسسها فيلسوفا الأخلاق الانجليزيين ج. ل .أوستين وبول جرايس. وبعد انتشار هذه المقاربات التي تم جمعها فيما يسمى بالنظريات التداولية[١].

مفهوم المقاربة:

يرى الأصفهاني أن المقاربة: تأتي بمعنى القراب، مستشهدًا بقول الشاعر:

فإن قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوءات الأمور اجتنابها[٢].

ومنه وقدح قربان: قريب من الملء، وقربان المرأة: غشيانها، وتقريب الفرس: سير بقرب من عدوه، والقراب: القريب[٣].وقاربته في البيع مُقارِبُ، بكسر الراء، أي: وسطٌ بين الجيِّد والرديء، ولا تقل مُقارَب، وكذلك إذا كان رخيصًا، والتقارب ضد التباعد[٤].

أهمية المقاربة:

فطن بعض العرب المحدثين إلى أهمية هذه المقاربات في تناول اللغة العربية والتراث الفكري واللساني العربي عامة، والنص القرآني بصفة خاصة، وفقًا لما تمت تسميته، بإعادة قراءة التراث العربي والإسلامي. وقد فطن هؤلاء إلى أن النص القرآني ليس مجرد نص خاضع لمقتضيات قواعد النحو، والصرف، والفونولوجيا، بل هو: نص خاضع لمجموعة من القواعد والقوانين المعقدة تتضمن عالمًا من القواعد والقوانين النفسية، والاجتماعية والثقافية،

---

1) D*ictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Dubois et Al., Librairie*

Larousse, 1994, P375.

٢) البيت لهلال بن خشعم، وقيل: إنه لمرار بن منقذ ، وهو بنسبته في كتاب جمهرة الأمثال: ٨١/٢.

٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني، كتاب القاف:٥٠٦.

٤) الصحاح، للجوهري، ج١: ١٧٧.

والدينية، والبيئية....الخ، وهو الذي يمكن أن نطلق عليه مصطلح السياق التفاعلي[١].

فمن بين كبريات القضايا النظرية والمعرفية التي يمكن لها أن تندرج فيها هذه القراءة التداولية للنص القرآني قضية السياق الذي نزل فيه القرآن الكريم والذي يحتضن السياق الظروف والمقامات التي نزلت فيه الآيات، أي: ما يسمى بأسباب النزول، وكذلك الإطار التفاعلي لمختلف الحوارات الواردة في القرآن الكريم والتي تحددت فيها مراتب المتخاطبين، مما سهل عملية استصدار الأحكام عن طريق الفهم الدقيق لمعاني آيات القرآن الكريم. وضمن هذا الإطار سنقوم بدراسة الأسلوب العلمي الذي استنبط فيه علماء الأصول أحكامهم، منطلقين في ذلك من معرفتهم الدقيقة لطبيعة الأفعال الكلامية الواردة في النص القرآني[٢].

المبحث الأول

الحديث عن ألفاظ القرآن الكريم يعتمد على موضوع دلالاتها، وعلى البنية الداخلية للنظم القرآني. واهتمامنا ينصب على كيفية توليد القرآن لمعاني الألفاظ فيه، ثم بالتالي فهم النص القرآني بعد ضبط معاني المفردات فيه. أمّا بنائية القرآن الكريم: فالقرآن الكريم كتاب منهج كوني مركب بتركيب متماثل مع تركيب الكون ولولم يكن بناؤه مماثلاً للبناء الكوني لما كان يمكن أن يحتويه[٣].

---

١) المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو ، ترجمة: سعيد علوش، مركز الأداء القومي، الرباط، ماي ١٩٨٦، ص٢ ٨.

2) *L'énonciation de la subjectivité dans le langage, C.K.Orecchioni,(1980) , 2ème Edition, Paris, Armand Colin, 1980, P185.*

(٣)انظر: مجاز القرآن، معمر بن المثنى أبو عبيده، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، دار الكبتي، مصر، ط ١، ١٩٥٤م: ٨/١.

لفظ (رجم):

جاء في الصحاح:" (الرَّجَمُ): بمعنى القتل، وأصله الرمي بالحجارة ؛ وقد رجمتهُ أرجُمُهُ رجمًا، فهو رجيم ومرجوم.... والرُجمةُ، بالضم: واحدة الرُجَم والرجَامِ، وهي: حجارة تُ ضخام دون الرِضام، ورُبمّا جُمِعَتْ على القبر ليُسَنَّ...والرجم بالتحريك: القبر. ورجل يِرْجِمُ بالكسر، أي شديد، كأنه يُرْجَمُ به مُعادِيهِ[١].

والرَجمُ: يعني المساهمة التي هي رمي بالسهام أو إلقاء الأقلام للاقتراع، وهنا تكون المراجمة بدلاً من المساهمة أي: إلقاء الحصى وما يشبهه بدلاً من إلقاء السهام والأقلام على سبيل الاقتراع واختيار ماتقع عليه الرُجَم أو الرجام وإن كان أمرًا غيبيًا ظنيًا، ومنه قوله تعالى:﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾[الكهف:٢٢]، ويقالُ صار فلان رَجْمًا: بمعنى لا يوقف على حقيقة أمره، ومنه " الحديث المُرجّمُ "، بالتشديد. والمادة اللغوية هذه بلفظها تتنوّع دلالاتها على حسب ورودها في السياق، وأيًا كان نوعه فالسياق هو من يحدد لها المعنى المطابق لمكانها مُستعينًا على ذلك بما ورد من القرائن السابقةِ أو اللاحقة أو كليهما معًا[٢].

(ورجمهُ) رجمًا: بالحجارة. وقتلهُ بها، وفلانًا: رماه بالفُحشِ من القول. ولعنه وطرده. وهجرهُ. وفي التنزيل العزيز: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾[مريم:٤٦]، والظن: رمى به. والقبر: وضع عليه الرّجام. فهو مرجوم، ورجِم. وراجم في الكلام، ولعَدْوِه،

(١) انظر: الصحاح، للجوهري ،مادة(ر ج م):١٥٦٦/٤-١٥٦٧.، واللسان، مادة(ر ج م):٦٩/٤-٧٠.

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري ،مادة(ر ج م):٤.

والحرب: بالغ. وكل ما سبق من معانٍ ودلالات في السياقات السابقة قد أشارت إليه أكثر المعجمات العربية[١].

واللافت أن هذه المفردة ترد في عدة سياقات وتختزل عدة معانٍ، وقد تكررت ما يزيد عن اثنتي عشرة مرة، والرجم أو الرجام: هي الحجارة، والرجم: الرمي بالرجام. يُقال: رجم فهو مرجوم، ومنه لفظة (مرجومين) في سياق الآية: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء:١١٦]، أي: المقتولين أقبح قتلة، ولو تأمل الباحث أو القارئ سياقها لوجد أن لها معاني متعددة وردت في المصادر اللغوية ومنها على سبيل المثال: الرمي بالرجام وهي (الحجارة، القتل، والشتم، واللعن، والظن)[٢].وأكثر ما توحي به اللفظة هو الرمي أو القتل بالحجارة ومن ذلك[٣].

المعنى الأول: الرجم: وتأتي بمعنى (القتل) ويرد في سياق الآية: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود:٩١]، فالذي يظهر من سياق الآية أن لفظة (الرجم) هنا بمعنى (القتل) فمعنى (لرجمناك): لقتلناك شر قتله[٤]، والسياق يصف حقدهم وبغضهم لنبي الله شعيب – عليه السلام – وحرصهم على قتله، رميًا بالحجارة وهذا ما يُفهم من السياق ومما ورد على هذا المنوال ما جاء في سياق الآية التي وردت على لسان قوم نوح؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء:١١٦]، بمعنى: المقتولين أقبح قتلة[٥] كما تحتمل معنى آخر يُفهم من السياق ألا وهو الرجم بالحجارة أو الشتم.

(١) انظر: الصحاح ، للجوهري ،مادة(ر ج م):١٥٦٦/٤.، واللسان، مادة(ر ج م): ٦٩/٤.
(٢)انظر: تأويل مشكل القرآن، ٥٠٨. دلالة السياق في القصص القرآني:١٠٥، الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ٢٨٥.
(٣) انظر: دلالة السياق في القصص القرآني: ١٠٦.
(٤) انظر: الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٢٨٩، والوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ٢٨٥.
(٥) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ر ج م): ٣٤٥.

المعنى الثاني: الشتم: وهو يعد من معاني الرجم، المجازية التي تكون بالألفاظ التي هي أثقل من الحجارة، وهذا ما ورد في سياق قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾[مريم:٤٦]، والظاهر أن المعنى (لأقولن فيك ما تكره) [١]، أي (لأشتمنك)[٢] والذي يظهر من سياق الآيات أن إبراهيم خاطب أباه بأسلوب لين حكيم لكن أباه كان متمسكًا بآلهته، وحبه لها يزيد على كل حب، ولذا، طلب من إبراهيم (عليه السلام) أن ينتهي عن دينه ويبتعد عنه لئلا يسيء إليه ويشتمه ولربما يقتله رميًا بالحجارة أو يرميه بكلام قبيح[٣].

المعنى الثالث: اللعن والطرد، ويتجلى هذا المعنى في سياق الآية قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[الحِجر:٣٤]، والرجيم: هو المطرود عن الخيرات، وعن منازل الملأ الأعلى ثم تأتي اللفظة في سياق آخر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾[المُلك:٥]، فرجومًا توحي بالرجمة والرجمة: فسرها الأصفهاني بأحجار القبر والرجم بالفتح (القبر) ثم يعبر بها عن القبر، وجمعها رجام ورُجم، وقد رجمت القبر: وضعت عليه رجامًا، ومنه الحديث الذي يُروى عن عبد الله بن مُغَفَّل أنه أوصى بنيه عند موته، فقال: "لا تَرْجُموا قبري"، فمعناه: لا تنوحوا عند قبري. أي: لا تقولوا عنده كلامًا سيئًا سمجًا[٤].

المعنى الرابع: الظن، ويظهر من خلال سياق الآية قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ

---

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ر ج م) ٣٤٥.
(٢)انظر: الكشاف:٥١١/٢، وتأويل مشكل القرآن: ٥٠٨، ودلالة السياق في القصص القرآن: ١٠٦.
(٣) انظر: مفردات ألفاظ القرآن (ر ج م) ٣٤٥.
(٤) غريب الحديث ٤/ ٢٩٠ وفيه: " والمحدثون يقولون: لا ترجموا قبري، وكذا في الصحاح (رجم). انظر: البداية والنهاية ٢/ ٢٠٥.

﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾[الكهف:٢٢]، ويفهم من سياق الآيات أن تحديد عدد أصحاب الكهف قائم على الشك، ولا يعلم عددهم على وجه اليقين إلا الله. وهذا يؤكد أن معنى قوله تعالى (رجمًا بالغيب) بمعنى والله أعلم "رميًا بالشيء المغيب عنهم أو ظنًا"(١)، ويظهر أن الأدلة السياقية توجه المعنى (معنى الرجم) بل وتحدده بالظن تحديدًا لا يجد معه القارئ أي لبس، بيد أن الرجم قد ذكر في القصة نفسها في آية سابقة لا يفصلها سوى آية واحدة عن هذه الآية، ودل هناك على القتل دلالة واضحة، فيما ورد في سياق الآية وهي قوله ﷻ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾[الكهف:٢٠]، فمصيرهم إذا انكشف أمرهم إمّا القتل وإمّا الردة وطاعة الطغاة.

ومنه ما ورد في سياق البيت لشاعر الحكمة زهير ابن أبي سُلمى حيث أورد لفظة (الرجم) وجاءت بمعنى الظن:

وَمَا الْحَرْبُ إلا مَا عَلِمْتُم وَذُقْتُم وَمَا هُوَ عَنهَا بِالْحَديثِ الْمُرَجَّمِ(٢)

وخلاصة القول: أن لفظ (الرجم) يُستعار للرمي بالظن، والتوهم، وللشتم والطرد، ويدل خارج السياق على معانٍ مختلفة؛ لكنه لا يدل في السياق إلا على معنى واحد يقصده المتكلم ويفهمه السامع بمساعدة القرائن اللفظية والحالية، وهذا ما أشرنا إليه في ناصية الحديث عن هذه المفردة. كما يُلحظ في السياق القرآني أن هُناك جملةً من المكونات الدلالية والوسائل المضمونية التي تعمل على أداء المعنى المبتغى لدى المتلقي، وتنشطر هذه المكونات على وفق المراد منها في الخطاب اللغوي.

وهذه المفردة أُخذت من جهة المشترك، بيد أن لها دلالات عدة يغلب عليها المجاز حيث تأتي بمعنى القتل، والشتم والرمي بالظن، أو التوهم، ومع ذلك فهي تماثل بعض المعاني المترادفة إلا أنه لا تعارض بين المشترك والترادف من وجهة نظري؛ لأنهما جزءٌ لا يتجزأ بعضها من بعض، لكنها تُحمل من جهة المشترك وليس الترادف لقربها وتعدد معانيها، والسياق هو من

(١) انظر: البحر المحيط: ٦/ ١٠٩.

(٢) انظر: البيت من معلقته المشهورة وهي من (الطويل): ١٤٨، وهي في ديوانه:١٠٧، وشرح قطر الندى:٢٦٢، وفي اللسان (ر ج م):٢٢٦/١٢.

يوجه اللفظة، والقرائن هي من تنتج المعنى أصليًا كان أم مجازيًا، حسب استعماله وحضوره.

لفظ: (سَوَّدَ)

وردفي لسان العرب" السيِّد" أنها تأتي بمعنى الذئب، ويقال: سِيدُ رمْل، وفي لغة هُذيل الأسَدُ [١] ؛ وقال الزبرقان بن بدر:

تَعْدُو الذِّئَابُ عَلَى مَنْ لَا كلَابَ لَهُ وتتَّقِي مَرْبِضَ المستأسدِ الضَّارِي[٢]

وورد في لسان **العرب** أيضًا، عن ابن سيده: أن سيبويه حمله على أنَّ عينه ياء فقال: في تحقيره "سُيَيْد " كَذُبيْل، قال: وذلك أن عين الفعل لا يُنْكر أن تكون ياء وقد وجدت في سيد ياء، فهي على ظاهر أمرها إلى أن يَرِد ما يَسْتَنْزِلُ عن بادئ حالها؛ فإن قيل: فإنا لا نعرف في الكلام تركيب "س ي د" فلما لم تجد ذلك حُمِلت الكلمةُ على ما في الكلام مثله وهو مما عَينِه من هذا اللفظ واو، وهو السُّودُ ونحو ذلك...وقد ذكره الجوهري في ترجمة سود، والجمع سِيدانُ والأنثى سِيدةُ. وفي حديث مسعود بن عمرُ: " لكأني بُجنْدَب ابن عمرْوٍ أقبل كالسيَّد: أي: الذئب. قال: وقد يسمى به الأسدُ. وامرأة سِيدانة: جريئة. والسَيدان: اسم أكمة، وبنو السِّيد: بطنُ من ضَبَّة. وسِيدانُ: اسم رجل[٣]. وترد هذه المادة اللغوية في عدد من منها:

الموضع الأول: في سورة آل عمران قال تعالى: ﴿**فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩**﴾[آل عمران:٣٩]. ودلالة لفظة السيد هنا تدل على أن نبي الله يحيى (عليه السلام) يكون سيدًا في قومه، له المكانة والمنزلة

(١) انظر: اللسان ٥٦٩/٢. مادة (س ي د).
(٢) انظر: البيت من البحر البسيط ، شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم،(من شعر الشعراء الصحابة الفرسان)، تحقيق : د. سعود محمود عبد الجابر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١٤٠٤،١ هـ/ ١٩٨٤ م: ١١٥، وزهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (المتوفى: ١١٠٢هـ)، تحقيق: د. محمد حجي، د محمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة: الأولى، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م ١٠٨/٣.
(٣) انظر: لسان العرب، مادة(س ي د): ٥٦٩/٢.

العالية، وحصورًا لا يأتي الذنوب والشهوات الضارة، ويكون نبيًّا من الصالحين الذين بلغوا في الصَّلاح ذروته.

الموضع الثاني: ورودها في سورة يوسف إذ تدل بمدلولها على (الزوج) وهذا يُفهم من خلال السياق إذ قال الله تعالى: ﴿**وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾**﴾ **[يوسف:٢٥]**، بمعنى أنّها وجدت زوجها عند الباب فقالت: ما جزاء مَن أراد بأهلك فاحشة إلا أن يسجن أو يعذب العذاب الموجع(١).

ومن معاني ودلالة لفظة (السيد) أنها تدل على الرجل يُعدُّ عينًا من الأعيان، وهذا يعني أن دلالة العين انتقلت عبر السياق إلى السيد وذلك في معرض حديثنا، ذاك الرجل عين من الأعيان، بمعنى أن له مكانته في القبيلة، ولذا فالعين هنا بمعنى السيد (٢).

ويأتي من معانيها أيضًا الرب وهو بمعنى السيد ومنه ما ورد في سياق الشعر في أبيات المهلهل أخو كليب عندما قُتل رثاه المهلهل بقوله في أحد أبياته:

قَتَلُوا رَبَّهُمْ كُلَيْبًا سَفَاهًا ثُمَّ قَالُوا مَا إِنْ نَخَافُ عَوِيلًا(٣).

وعلى ما يبدو أن لفظة الرب تعني المربي أو ولي النعمة أو الأب. ولفظة (مولى): تعني السيد والعبد معًا واللفظة حاليا صارت خاصة بالمعنى الأول فقط.

---

(٢١) إطلاق السيد على الزوج قيل: إن القرآن حكى به عادة القبط حينئذٍ، كانوا يدعون الزوج سيدًا. والظاهر أنه لم يكن ذلك مستعملاً في عادة العرب، فالتعبير به هنا من دقائق التاريخ مثل قوله تعالى: **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ** ﴾**[يوسف:٧٦]** ولعل الزواج في مصر في ذلك العهد كان بطريق الملك غالبًا. وقد علم من الكلام أن يوسف (عليه السّلام) فتح الأبواب التي غَلّقتها زليخا بابًا بابًا حتى بلغ الخارجي، كل ذلك في حال استبَاقهما، وهو إيجاز. انظر: تفسير التحرير والتنوير، لابن عاشور:٢٣٨/١٢.

(٢) انظر: الشعر الجاهلي في تفسير القرآن الكريم: ٨٧.

(٣)انظر: العقد الفريد، تأليف أبى عمر أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ٤-: ١٨. البيت من البحر الخفيف.

وخلاصة القول: إن لفظة (السيّد) وردت في عددٍ من السياقات القرآنية، والذي يفهم من سياقها اللغوي الأصلي هو إطلاقها على سيّد القوم، وقد تجاوزت هذا المعنى إلى معانٍ متعددة، ودلالات مختلفة مجازية مثل: الزوج، والرب، والذئب، وهذه المعاني وأمثالها جاءت من مسمى مشترك.

المبحث الثاني

إذا نظرنا في القرآن الكريم وجدناه دقيقًا في اختيار الألفاظ فكل لفظ منه له دلالة خاصة لا يمكن أن يؤديها غيره، فهو يستعمل كل لفظ حيث يؤدى معناه في دقة فائقة تجعل المخاطب يؤمن بأن هذا المكان لا يمكن أن يوضع فيه غير ذلك اللفظ، وأن لفظًا آخر لا يستطيع توفية المعنى الذى وفّى به ذلك اللفظ، فكل لفظ وضع ليؤدي نصيبه من المعنى أقوى أداء، ويجعل لكل لفظ معنًى جديدًا[١]. **ومنه:**

لفظ: (انبجس- انفجر):

اللافت للنظر أن المفردتين فيهما تقارب من حيث عدد الحروف، وكذا المعنى والمبنى، وكذا في الوظيفة، وهو أن تستعمل مفردة في موطن، وتستعمل غيرها في موطن آخر شبيهٍ به، بل قد يحدث في القصة الواحدة. فوردت لفظتا (انفجرت) و(انبجست) في الخطاب القرآني في موضع واحد لكل منها. فوردت لفظة (انفجرت) في سورة البقرة، أمّا لفظة (انبجست) فوردت في سورة الأعراف، وكانتا تمثلان فعلا سرديًا ذا مضمون حدثي واحد، وهو قصة موسى -عليه السلام-، واستسقاؤه لقومه -بني إسرائيل- في التيه، حيث كان يحمل معه حجرًا قيل: إنه من جبل الطور يشبه رأس الشاة، وقيل: إنه كان حجرًا مربعًا منفصلًا له أربع جهات، تنبع من كل جهة ثلاث عيون، إذا ضربه موسى -عليه السلام-، أمّا في حالة استغنائهم عن الماء، ورحيلهم فإن العيون سوف تجف [٢]. فكانت لكل سبط من أسباط بني إسرائيل الاثني عشر، عين يشربون منها، فلا يدخل سبط على غيره في شربه[٣]. فورد هنا السرد وهو

(١) ينظر: بلاغة القرآن: ٥٧، ودلالة السياق في القصص القرآني : ٧٨.
(٢) ينظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي: ٣/٩ ـ ١٠.
(٣) ينظر: تفسير الطبري: ٩/٦١، وينظر تفسير ابن كثير: ١/٢٤٣ ـ ٢٤٤.

استسقاء موسى -عليه السلام- لقومه بتعبيرين مختلفين، تارة بلفظة (انفَجَرَتْ) وتارة أخرى بلفظة (انبجست).

وهناك من يريد أن سياق الآية في سورة البقرة، أراد الله -عز وجل- فيه إظهار تمام النِعَمْ على بني إسرائيل دون التدرج في إعطائها لهم، حتى لا تكون لديهم حجة على الله ورسوله، فأنجاهم قبلها من آل فرعون الذين كانوا يسومونهم سوء العذاب، وهو خلاص معْجِز وكبير، ثم تَكفّل بطعامهم، وكان بألّذه وهو (المن والسلوى)، وهو طعام أهل الجنة، وهذا تمام النعمة عليهم أيضًا. ثم سقاهم بماء يتفجر من العيون، فذكر تمام النعمة من السقي وهي انفجار الماء. ولم يذكر كيف بدأ الماء بالانبثاق ومراحله حتى انتهى إلى الانفجار. فوردت الكلمة مناسبة في معناها لبقية السياقات في السورة الكريمة بتعدد نِعَم الله -عز وجل- على بني إسرائيل، وكيف كان منتهى الكرم والجود يقابله منتهى النكران والجحود. وأيضًا قوة الأمر في سورة البقرة في الفعل (اضرب) ووقوعه الحتمي القوي؛ لأنه أمر من الله -عز وجل- جاء مناسبًا لانفجار الماء فيها.

أمّا في سورة الأعراف، فكان أمر الاستسقاء من الله –عز وجل- لموسى -عليه السلام- بالإيحاء، (وأوحينا إلى موسى)، فورد الأمر مخففًا ب (أن) التفسيرية وكأنها تخفف من حِدّة الضرب (أن اضرب بعصاك). فنلحظ لينًا ورخاوةً وهمسًا، جاءت منسجمةً مع لفظة (انبجست) والتي تكون صفات حروفها تدل على الهمس والرخاوة، والجهر والشدة أيضًا، وسأفصّل القول لاحقًا.

المعنى لغةً واصطلاحًا:

ورد في الصحاح أن "بجس يبجس الماء فانبجس، أي: فجَّرته فانفجر؛ وبجس الماءُ بنفسه يبجسُ، يتعدَّى ولا تعِدَّى"(١).

وفي لسان العرب "البجس: انشقاق في قِرْبة أو حجر أو أرض يَنْبُع منه الماء، فإن لم يَنْبُعْ فليس بانْبِجاس.... وبَجَسْتُه أَبْجِسُه وأَبْجُسُه بَجْساً فانْبَجَس، وبَجَّسْتُه فَتَبَجّس، وماء بجيسٌ: سائل؛ ومنه السياق القرآني: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ

(١) الصحاح، للجوهري: ٧٦٩/٢. مادة (بجس).

فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾[الأعراف: ١٦٠]، والسحاب يَتَبَجَّسْ بالمطر، والانبجاسُ عامٌ، والنُّبُوع للعين خاصة.وبَجَسْتُ الماء فانْبَجَسَ أي: فَجَرْتُه فانفجر.....[١]. والفعل (انبجس) يعد من أفعال الحركة المرتبطة بسائل(ماء)، ومثله: الفعل انفجر. [٢]. ويصنفها بعض الباحثين في إطار تعدد الدال واتحاد المدلول وأورد لها مرادفات (فجَّر – شقَّق) بحيث تساوي الفعل بجس[٣].

وفي المفردات أن (انبجس، وانفجر) تختلفان في معناهما حيث إن بجس الماء وانبجس انفجر لكن الانبجاس أكثر ما يقال: فيما يخرج من شيء ضيق والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شيء واسع، ومنه السياق القرآني: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾[الأعراف: ١٦٠][٤].

وإن كثيرًا من المعجميين لا يفرقون بين هذه المفردة (بجس) وبين المفردة (فجّر) لزعمهم أنهما يتحدان في المعنى ويختلفان في اللفظ بل يفسرون إحداهما بالأخرى في كثير من الأحيان، ويرون أن اللفظتين مترادفتان ومنه (تفجرَّ): انبعث سائلاً وفجّره هو يفجره بالضم فجرًا، فانفجر أي: بجسه

(١) انظر: لسان العرب:٢٤٦/١، مادة (بجس).
(٢) انظر: أفعال الحركة في القرآن الكريم، دراسة دلالية، رقية على بن علي، أطروحة ماجستير، كلية التربية جامعة عدن، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م: ٩٧.
(٣) انظر: الدلالات المعجمية التركيبية في كتب غريب القرآن الكريم، لابن سميط: ٢٣٢.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني: ١٠٨.

فانبجس، وبجست الماء فانبجس أي: فجرته فانفجر...، وانبجس الماء تبجّس أي:تفجّر[١].وفي السياق القرآني وردت مفردة (فجَّر) بمشتقاتها "خمس مرات"، أربع مرات منها في سورة القصص ومنها:

ففي السياق الأول: وردت لفظة (انفجرت) في السياق القرآني: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾[البقرة:٦٠]، **وفي السياق الثاني:** وردت لفظة (انبجست) إذ يقول الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[الأعراف:١٦٠]، ولعل السائل يتساءل: لماذا جاء التعبير في الآيتين مختلفًا رغم أن الحادثة واحدة؟ أعتقد أن الجواب يكمُن في السياق قبل أن يكون في المعنى المعجمي للفظة، وهذا ما سنوضحه من خلال استقراء دلالتي اللفظين، إذ نلحظ أن الفعلين وإن تقاربا في المعنى فليسا سواء؛ لأن الانبجاس ابتداء الانفجار، والانفجار بعده غاية له[٢].

ويرى الثعالبي أن "الانبجاس في الماء أقل من الانفجار "[٣]، وأمّا القرطبي: فيرى أن "الانفجار يتقدمه الانبجاس"[٤].

(١)انظر: المصدر السابق (بجس) ٣١٨/١.
(٢) انظر: دلالة السياق في القصص القرآني: ٩٤.
(٣) انظر: الجواهر الحسان: ٧٠/١.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤١٦/١.

ويذهب بعض المحدثين إلى أن الانفجار هو: الاشتقاق والتفتح ومنه الفجر لانشقاقه بالضوء والانبجاس أضيق لأنه يكون أولاً: والانفجار ثانيًا(١).

والحقيقة أن التعبير القرآني المعجز قد فرَّق بين اللفظين، ووضع كل لفظ في السياق الذي يناسبه، ومع هذا لا نستطيع أن نبدل أو نغيّر لفظًا مكان لفظ فكلٌ له خصوصيته، بزمانه ومكانه ودلالته التي ترد في سياقه، إذ يدل سياق الآيات في سورتي الأعراف والبقرة على أن الطلب الواقع في سورة الأعراف هو: طلب بني إسرائيل السقيا من موسى -عليه السلام - إذ قال الله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾[الأعراف:١٦٠].

والحال أو الواقع في سورة البقرة هو طلب موسى -عليه السلام- من ربه: ﴿۞وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾[البقرة:٦٠]، فطلبهم السقيا كان من موسى -عليه السلام- وهو ابتداء فناسبه اللفظ الذي يدل على ابتداء الانفجار وهو (انبجست)، أمّا لفظ (انفجرت) فقد جاء بعد طلب موسى -عليه السلام -السقيا لقومه وطلبه غاية لطلب قومه؛ لأنه واقع بعده ومترتب عليه فناسبه اللفظ الدال على الغاية وهو (انفجرت) ولم يكن يناسبه العكس(٢).

ويرى د. محمد عبدالله العبيدي أن الانبجاس وهو بداية خروج الماء من شقَّ ضيقَّ، وفيه دلالة على قلة الماء وضعف اندفاعه في البداية، أمّا طلب موسى- عليه السلام- فقوبل بالانفجار الذي يدل على تدفق الماء بغزارة وقوة،

(١)انظر: دلالة السياق: ٩٤.
(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم ١٠٢/١، وملاك التأويل ٢١٢/١ – ٢٠١٣، ودلالة السياق: ٩٥.

إكرامًا لموسى -عليه السلام - لمكانته عند الله فكأن الماء انفجر دفعة واحدة، وفي هذا إشارة إلى أهمية مراعاة حال المتكلم في توجيه الدلالة(١).

بيد أن المقام في سورة البقرة مقام التكريم وتعداد النعم، فعبَّر بالانفجار؛ لأنه أبلغ في تصوير كثرة الماء، وعبرَّ في سورة الأعراف بالانبجاس؛ لأن المقام في تصوير العقوبات وإهلاك الأمم بذنوبها(٢).

وهناك من الألفاظ ما تُضاهي ما سبق معنًى لا لفظًا ويحكمها السياق، مثل: لفظة (يشقّق) في سياق الآية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٤].

والذي يظهر أن بين اللفظتين علاقة ارتباط ترجع إلى (خروج الماء)، فلفظ (يتفجر) في هذه الآية يدل بدلالته على تدفق الماء وغزارته، ومما يؤكد هذا المعنى ما نلاحظه من خلال الأدلة التي تُستنبط من السياق على سبيل المثال:

١- تأكيد الآية بأن التفجرَّ قد يؤدي إلى جريان الأنهار، ولا تجري الأنهار إلا بماء كثير، وهذا أمر معلوم لدى المتلقين للنص القرآني، ومنه أن (التفجر: التفتح بسعة وكثرة(٣)، ويرد لفظ (يشّقَق) في السياق وقد عطف على لفظ (يتفجر) ويدل بدلالته على خروج الماء من الحجارة، وإن لم يكن جاريًا، ورُبّما يدل بدلالته على العيون التي لم تعظم حتى تكون أنهارًا أو على الحجارة التي تتشقق وإن لم يجر ماء منفسح (٤).

(١) انظر: دلالة السياق في القصص القرآني: ٩٥.
(٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن: ٣/ ٣٤٢.
(٣) انظر: تفسير البضاوي: ١/ ٣٤٦.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ١٦٤، الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٤٦٤.

٢- ومما يؤكد ما ورد في الآية السابقة، التصوير الفني الدقيق الذي تجلى في سياق الآية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾[البقرة:٧٤]، بمعنى" أن قلوبهم قاسية كالحجارة، لا يخشون الله ولا تخشع قلوبهم لذكره، ولا تلين أمام المعجزات العظيمة والآيات البينة ؛ ولذلك فهي أشد قسوة من الحجارة؛ لأن الحجارة مع قسوتها، تتفجر منها الأنهار وتخرج منها العيون، وفي هذا مقابلة رائعة بين مشهدين شاخصين، قلوب يفترض فيها اللين والرقة تبدو متحجرة، وحجارة يفترض فيها القسوة ويعتريها اللين فتتفجر وتخرج منها الأنهار العظيمة [١]. وأوردها الشاعر: بشر بن أبي خازم مشتقة قائلاً:

فَأَسْبَلْتِ الْعَيْنَانِ منَي بِوَاكِفٍ كَمَا أَنّهَا مِنْ وَاهِي المُتَبَجِّسِ[٢]

وفيه تأكيد على أن دلالة لفظة (انبجست) بمعنى انفجرت[٣]. وترد اشتقاقات اللفظ (انفجر) ومنها على سبيل المثال لا الحصر، لفظة (فجرنا) فترد في سياق الآية: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾[الكهف:٣٣].

وهنا يذكر: صاحب تفسير في (ظلال القرآن)، "أن السياق اللغوي للآيات يدل على أن القصة تصور سعة نعم الله على أحد عباده، وعدم شكره لواهب النعم، فقد وهب كل شيء عظيم في الحياة، والقصة تصور مشهد

(١) انظر: دلالة السياق في القصص القرآني، د. محمد عبدالله العبيدي:٩٦.
(٢) البيت من بحر الطويل، وهي من مسائل نافع بن الأزرق قال: يا ابن عباس أخبرني عن قول الله عز وجل: **فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا**﴿[الأعراف:١٦٠] ، قال: أجرى الله من الصخرة اثني عشر عينًا، لكل سبط عين يشربون منها، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أمّا سمعت بشر بن أبي خازم وهو يقول:
فاسبلت العينان مني بواكف *** كما أنها من واهي المتبجس، انظر: ديوان بشر بن أبي خازم: ١٠٠.
(٣) معجم غريب القرآن: ٣٩.

الجنتين في ازدهاء، وفخامة، فهما مثمرتان من الأعناب، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر، وهذا يعني أن الماء كان كثيرًا، وعبر عنه بالتفجير، حسب ما يفهم من السياق، فضلاً عن أن النهر ممتد متجدد، وهذا يناسب التعبير بالتفجير وهو تدفق الماء"(١).

وفي بلاغة الكلمة " قد تتقارب المفردات في التعبير القرآني، فتستعملُ مفردة في موطن، وتستعملُ غيرها في موطِن آخر شبيهٍ به"(٢) وهذا ما يُلحظ في مفردتي الانفجار والانبجاس الواردة في السياق القرآني في سورتي البقرة، والأعراف. ومثلهما لفظتي سنابل وسنبلات، ويخصمون ويختصمون. وهذا ما سنشير إليه في المبحث الثاني والثالث. ويرد اللفظ نفسه في سياق سورة القمر: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[القمر:١٢].

فالذي يُلحظ من خلال ورود اللفظ في سياق الآية: أنه يدل بدلالته على أن التفجير(منسوب إلى الله عز وجل) ووروده بصيغة الجمع. يدل على كثرة الماء وسرعة تدفقه من السماء والأرض، حتى فاضت الأرض بالماء وغرق جميع المخلوقات ما عدا الذين كانوا على السفينة، كما أن اللفظ (فجّرنا) جاء في سياق تصوير سعة التفجير، وشدة طغيان الماء على الأرض، وكأن الأرض كلها تتفجر عيونًا.

والمعنى: "وجعلنا الأرض كأنها عيون متفجرة، وأصله فجّرنا عيون الأرض فغيرَّ إلى التمييز للمبالغة في جعل الأرض كلها متفجرة مع الإبهام والتفسير"(٣).

والخلاصة أن اللفظين (انفجر – انبجس) مترادفان لاتحادهما معنًى واختلافهما لفظًا، وفي كلتا الحالتين الانبجاس يعني الانفجار، والعكس، ومسألة التقديم والتأخير لا تُشكِّل في بعض الأحيان لبسًا بل يعود ويؤول ذلك إلى بلاغة وفصاحة القرآن الكريم، وكلتا القرينتين واحدة، والحادثة واحدة، ولا شك إن قلنا أنهما يتقاربان في دلالاتهما المتمثلة في خروج الماء وتدفقه، ومتى مارُمِيت

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٤/ ٢٢٧.
(٢) انظر: ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي:١٢٨، البرهان للكرماني:٨٨-٨٩، ومعترك الأقران:١/٨٧-٨٨، ودرة التنزيل: ١٤-٢٠.
(٣) انظر: روح المعاني: ٢٧ – ٢٨.، دلالة السياق ٩٧.

المفردة في السياق أخذت منحىً مناسبًا لـه ووفق ضـوابطه، وقد نفسر ونحلل ولكـن للقـرائن الموجـودة داخـل الـنص، والملابسـات والظـروف والاحتمـالات خارج النص، وتدعيم السياق لكلتا الحالتين يلعب دورًا مهمًا، فمن كل هذا وذاك يـتمخض المعنـى وتتجلـى دلالـة اللفظـة ويتبـيّن الفـرق الـدلالي لكلتـا اللفظتـين تقاربتا أو تباعدتا([1]).

كثيرًا ما أُستُعمل مصطلح (المقاربة) في دراسة اللفظة وتحليلها معجميًا، أمّا بالنسبة لدراسة اللفظة من جهة سياقها فهذا يُحتّم على السياق تحديد وجهة المعنى للفظة وفق ما ارتبطت به من قرائن وعلاقات سياقية ومعجمية في آنٍ واحد، لتعطي القارئ أجمل المعاني، وأزكاها دلالة.[2]

لفظ:(يَخِصِّمُونَ، ويختصمون):

خصم: الخصم مصدر خصمته، أي : نازعته خصمًا، يقال: خاصمته وخصمته مخاصمة وخصامًا، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤**﴾[البقرة:٢٠٤]، وقال: ﴿**أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨**﴾[الزُّخرُف:١٨]، ثم سمي المخاصم خصمًا، واستعمل للواحد والجمع، وربما (ثنّى) وجمع، وأصل المخاصمة : أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر.

وروي: (نسيته في خصم فراشي)[3]، والجمع خصوم، وأخصام ، وقوله : ﴿**هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩**﴾[الحج:١٩]، أي : فريقان، ولذلك قال:

---

١) أثر السياق في توجيه المعنى المعجمي في القرآن الكريم، للدكتور قاسم مهدي أحمد قاسم النفيعي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب ، جامعة أسيوط، مص،٢٠١٦-٢٠١٧م :١٢٢.

٢) المصدر نفسه :١٣٢.

٣) روي بسند صحيح عن ربعي عن أم سلمة مرفوعًا ، أنظر: مسند أحمد بن حنبل (٢٧٢/٤٤)، وابن أبي شيبة (١٩/ ٩٥) .

اختصموا وقال ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾[ق:٢٨]، وقال: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الشعراء:٩٦]، والخصيم الكثير المخاصمة، قال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾[النحل:٤]، والخصم : المختص بالخصومة ، قال: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾[الزُّخرُف:٥٨][1].

وورد الفعل (يختصمون) في مواضع كثيرة من الآيات القرآنية الكريمة، فكان يرد مؤكدًا في مكان، وغير مؤكد في مكان آخر، ويبدو شبيهًا به، لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له. فورد الفعل في سورة (آل عمران) بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[آل عمران:٤٤]. وورد الفعل المضارع نفسه في سورة (الشعراء) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الشعراء:٩٦]. وفي سورة (ص) قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾[ص:٦٩]، أمّا سورة (يس) فقد ورد فيها الفعل المضارع مشددًا، في قوله تعالى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾[يس:٤٩]. فالخصم، والخصومة: الاسم من التخاصم والاختصام، يقال: اختصم القوم، وتخاصموا، وخاصم فلان فلانًا، مخاصمةً، وخصامًا)[2]، و(هذا يوم التخاصم، وخاصمته فخصمته أخصمه،

١) مفردات ألفاظ القرآن : كتاب الخاء: (٢٠٤) .
٢) العين: ٤/١٩١، مادة (خصم).

وأخصم صاحبه: لقنه حجته حتى خصم، وأخذ يخصم الراوية وخصمها رفعها أي: بطرفها الأسفل وطرفها الأعلى))[١].

ومن المجاز: (قولهم في الأمر إذا اضطرب: لا يسد منه خصم إلا انفتح خصم أخر) [٢]، والخصومة الواردة في سورة (آل عمران)، يخبر الله -عز وجل- فيها الرسول الكريم محمدًا -صل الله عليه وآله وسلم- بخفي ما كتموا من العلم عندهم، أي اليهود، لتحقيق نبوته والحجة عليهم لما يأتيهم به مما اخفوا منه [٣]. وهو التخاصم في من يكفل (مريم) –عليها السلام-، عندما ولِدَتْ، حيث كان التخاصم بين الرهبان؛ لأن أمها نذرتها للمعبد إذ قالت: ﴿**إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾**﴾[آل عمران:٣٥].

وكان من بين العباد زوج خالتها زكريا -عليه السلام-، فقال: لهم بأنه أحق في كفالتها منهم، واستمر النزاع فيما بينهم، حتى احتكموا بأن يلقوا أقلامهم التي يكتبون بها التوراة إلى النهر، فإذا وقف قلم أحدهم، كان هو الكفيل لمريم -عليها السلام-. وعندما تم ذلك، كان قلم زكريا -عليه السلام-، هو الذي يقف من بين أقلام الرهبان. وتكرر الأمر ثلاث مرات، فأصبح نصيب كفالتها له. وكان هذا الاخبار للرسول محمد -صل الله عليه وسلم-، ليعرف ذلك ويخبر اليهود، فيعلموا أنه الرسول الحق، وأن الأمه من جهة الوحي فيدحضهم به[٤].

واللافت أن هذه الخصومة ليست خصومة شر، إنما هي خصومة خير، ولم تستمر طويلًا، بل انتهت بسرعة، وإن دل الفعل المضارع على التكرار والاستمرار فالفعل يشير بدوام هذه الخصومة إلى الآن؛ إلا أن هذا يعود لتأكيد منزلة مريم -عليها السلام- بين قومها وحبهم لها، ولا سيما رجال الدين اليهود (الرهبان)، وكأنه تمهيدًا لظهور عيسى -عليه السلام-، حتى لا يرفضه

١) لسان العرب: مادة (خصم).
٢) أساس البلاغة: ١١٣.
٣) ينظر: تفسير الطبري: ٣/١٨٥.
٤ ينظر: تفسير الجلالين: ٦٩.

اليهود في بدء دعوته؛ لأن كبار الرهبان تخاصموا من أجل كفالة أمه، فكيف هو! لذلك جاء فعل التخاصم من دون تشديد ولا قوة، فهو تخاصم لطيف.

أمّا الخصومة الواردة في سورة الشعراء، (وهم فيها يختصمون)، فهي خصومة أهل النار مع معبوديهم[1]. عندما القوا فيها، نلحظ أن هذه الخصومة ضعيفة أيضًا؛ فلا جدوى منها؛ لأن النتيجة واحدة، ولا يستطيعون أن يغيروها، فجاءت الخصومة خالية من الشدة، فهي يشوبها اليأس، والندم والجدال وهو مستمر دائم بفعل استمرارية الفعل المضارع، وتكراره في (يختصمون). وفي سورة (ص) كانت الخصومة في شأن آدم (عليه السلام)[2]، حين قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]. فهذه الخصومة ليس فيها شِدّة؛ لأنها منتهية أيضًا، فهي خصومة أشبه بجدال ضعيف، فالخصمان غير متكافئين في القوة، فهو جدال الملائكة مع رب العزة في خلافة أدم -عليه السلام- على الأرض.

وانتهى الجدال أو الخصومة بتأكيد الله -عز وجل-، بأنه يعلم ما لا يعلمون، وأراد الله أن يخبر الرسول -صل الله عليه وسلم-، بهذه الخصومة (ليحتج بها في صحة نبوته وبأن ما ينبىء به عن الملا الأعلى واختصامهم أمر ما كان له به من علم قط، ثم علمه، ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا، وهو الأخذ من أهل العلم، وقراءة الكتب، فعلم ذلك لم يحصل إلا بالوحي من الله) [3]. و(إذ يختصمون) متعلقة بمحذوف؛ (لأن المعنى ما كان لي من علم بكلام الملأ الأعلى وقت اختصامهم. و(إذ قال) بدل من إذ (يختصمون)، فإن قلت: ما كان التقاول بينهم، إنّما كان بين الله تعالى وبينهم؛ لأن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي قال: لهم وقالوا: له، فأنت بين أمرين: إمّا أن تقول: الملأ الأعلى هؤلاء، وكان التقاول بينهم، وإمّا أن نقول التقاول كان بين الله وبينهم فقد

١ ينظر: تفسير الجلالين: ٤٨٦.
٢ ينظر: تفسير الجلالين: ٤٨٦.
٣) الكشاف : ٣/٢٠.

جعلته من الملأ الأعلى، قلت: كانت مقاولة الله سبحانه بوساطة ملك.. والمراد بالاختصام التقاول على ما سبق)[١].

والفعل المضارع دل على الاستمرار والتكرار في الخصومة؛ ليوحي الله- جل وعلا-، إنه تحدى جميع خلقه في الملكوت الأعلى بـ (آدم وذريته). فيشعر الفعل المضارع، بأن هذا التحدي أو الخصومة لازالت قائمة حتى الآن؛ ليحاسب بني آدم أنفسهم في كل عمل يودون القيام به؛ و(لتحذير الجنس البشري من عداوة إبليس الأبدية) [٢]. ففعل الخصومة ورد في الآيات السابقة مناسبًا للسياق القرآني الذي وردت به، وهو سياق لا يحتاج إلى شدة أو قوة . لذلك ورد الفعل المضارع (يختصمون) غير مشدد.

أمّا في سورة (يس) فقد ورد الفعل المضارع (يختصمون) بالتشديد، حيث سكّنت (التاء) ونقِلت فتحتها إلى (لخاء) (يَخَتْصِمِوْنْ) ثم ذابت (لتاء) في (الصاد) وشددت [٣]، (يَخَصِّمون)، وبعدها كسرت (الخاء) مراعاة لكسرة (الصاد)؛ لأن الصاد هنا قوية بسبب التضعيف (يَخِصِّمون)، فأصبحت قوية في بنيتها، ومن ثم في معناها. ونزلت هذه الآية في الأقوام التي كذبت أنبياءها، ولم تؤمن بهم، فتوعدهم الله -عز وجل-، بصيحة واحدة ، وهذه والله أعلم ـ نفخة الفزع، فينفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم فبينما هم كذلك إذ أمر الله -عز وجل- بإسرافيل فينفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض، إلا أصغى ليتًا ورفع ليتًا ـ وهي صفحة العنق ـ يتسمع الصوت من قبل السماء) [٤]

ويجوز (أن يكون المعنى يخصِّمون مجادلهم عند أنفسهم فحذف المفعول به، ومعنى يخصمون يغلبون في الخصام خصومهم) [٥]. إذًا هي خصومة شديدة لشدة حبهم للدنيا وتمسكهم بها، ورفضهم للرسل وعنادهم لهم. لذلك جاءت اللفظة مناسبة بشدتها وتضعيفها لشدة الخصومة، والذي يؤكد هذه الشدة

١) المصدر نفسه: ٤٣.
٢) التعبير القرآني: ٢٦٩.
٣) ينظر: تفسير الجلالين: ٥٣٨.
٤) تفسير ابن كثير الدمشقي: ٥/٧٣، وينظر: تفسير الجلالين: ٣/٥٨.
٥) تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن: ١/٤٢٦.

ويقويها صوتا (الصاد والتاء) المدغمان، فلما كان صوت (التاء) شديد، فبإدغامهما ولّدا شدّة أكثر وقوة أكبر- والله أعلم.

ولذا نخلص إلى أن الأسلوب القرآني أسلوب بلاغي رائع، في كل لفظة بل بكل حرف فيه، وضع في مكانه المناسب ولمعنى مقصود، ولم تراع في هذا الموضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل روعي في هذا الوضع السياق القرآني كلّه مبنًى ومعنًى[١].

المبحث الثالث

اللافت أن اللفظ المفرد يعتمد اعتمادًا كليًا في معناه على تركيبه الذي وضع فيه دون الرجوع إلى المعاني الأخرى المثارة حول اللفظ قاموسيًا ومعجميًا، ويتحدد بذلك معناه الدقيق، وأن السياق هو الذي يخصصه ويحدد دلالته حصرًا نازحًا أثر الغموض والإبهام عن المفردة اللغوية أيًا كان نوعها اسمًا أو فعلاً.

لفظ: (سنابل وسنبلات):

يرى صاحب كتاب مفردات ألفاظ القرآن الكريم،(أن السنبلة جمعها سنابل، وهي: ما على الزرع، وأسبل الزرع: صار ذا سنبلة، نحو: أحصد وأجنى[٢]. ووردت في السياق القرآني صيغة جمع في موضع، ثم وردت صيغة جمع أخرى في موضع آخر، تمثلان عددًا واحدًا وهو (سبعة)، وذلك في سورتيّ: (البقرة ويوسف)، والصيغتان هما (سنابل وسنبلات).

ففي سورة البقرة، وردت في قوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١**﴾[البقرة:٢٦١]، فدلت صيغة الجمع فيها على الكثرة. أمّا في سورة يوسف، فوردت في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ**

---

١) ـ ينظر: التعبير القرآني: ١٢.

٢) مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني ، تحقيق: مصطفى بن العدوي، مكتبة، فياض، المنصورة، مصر، ١٤٣٠-٢٠٠٩م،كتاب السين:٢١٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَايَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾[يوسف:٤٣]، فكان التعبير في هذا السياق القرآني بصيغة الجمع الدال على القلة، وهي (سنبلات) حينما رأى الملك في المنام سبع سنبلات خضرٍ قد انعقد حبها، وسبعًا أُخَر يابسات، وقد استحصدت وأدركت فالتوت اليابسات على الخضر غلبن عليها فاضطرب الملك بسببه [١]؛ لأنه (شاهد أن الناقص الضعيف استولى على الكامل القوي فشهدت فطرته بأنه ليس بجيد، وأنه منذور بنوع من أنواع الشر، إلا أنه ما عرف كيفية الحال فيه، والشيء إذا صار معلومًا من وَجْه وبقيّ مجهولًا منَ وجْهٍ آخر، عظم تشوق الناس إلى تكميل تلك المعرفة، وقويت الرغبة في إتمام النقص، فجمع الكهنة وذكرها لهم)) [٢].

إن الاختلاف الوارد في النسقين السابقين لصيغتي الجمع، وجِّه بعدة توجيهات منها أن (آية البقرة سيقت في بيان المضاعفة والزيادة، فناسب صيغة جمع الكثرة، وآية يوسف لوحظ فيها (أربعة)، وهو قليل، فأتى بجمع القلة ليصدق اللفظ المعنى)[٣]. وقيل أربعة ؛ لأنهم عَدّوا اليابسات سبعًا أيضًا، والدليل على ذلك، (إن الكلام مبني عل انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان، والعجاف، والسنابل الخضر، فوجب أن يتناول معنى (الأخر) (السبع)، ويكون قوله وأخر يابسات بمعنى وسبعًا أخر، أن يعطف قوله ـ وأخر يابسات ـ على سنبلات خضر يقتضي ان تدخل في حكمها، فتكون معها مميزًا للسبع المذكورة)[٤].

أمّا في سورة البقرة، فَمَثَّلَ للمنفق في سبيل الله على نفسه، كـ (مثل باذر حبّة، وسبيل الله: دينه، وقيل: الجهاد، وقيل: جميع أبواب الخير، والمنْبِت هو الله، ولكن الحَّبة لما كانت سَبَبًا أسنِدَ إليها الإنبات كما يسند إلى الأرض والى الماء، ومعنى إنباتها سبع سنابل، أن تخرج ساقًا يتشعب منها سبع شعب لكل واحد سنبلة، وهذا التمثيل تصوير للإضْعاف سواء وجد في الدنيا سنبلة بهذه

١) ينظر: تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ١٣/٨.
٢) التفسير الكبير، للإمام الفخر الرازي: ١٨/١٤٧.
٣) البرهان، الزركشي: ٤/٢٢. وينظر: التعبير القرآني: ٣٩.
٤) تفسير الكشاف، الزمخشري: ٢/٣٢٢ ـ ٣٢٣.

الصفة أو لم توجد، على أنه قد يوجد في (الجاووس) و(الذرة) وغيرهما مثل ذلك)[١].

ويرى بعضهم إلى أن (القرآن الكريم يعمد إلى تصوير اضعاف الجزاء الذي يناله المنفق في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، في أوجه الخير والبر، بصورة حسية منتزعة أجزاؤها من الطبيعة النباتية، فهي كحبة مباركة انبتت سبع سنابل، ثم لم تلبث تلك السنابل إن ازدانت بالحب الكثير الفياض، حتى أن كل واحدة منها، حملت مائة حبة، فثارت الحبة المنبتة سبع مائة ببركة الله فيها وعنايته بها) [٢]. وهذا ما أشار إليه السياق القرآني: ﴿**مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥**﴾[البقرة:٢٤٥].

ولو(قال قائل: وهل رأيت سنبلة فيها مائة حبة، أو بلغتك، فضرب بها مثل المنفق في سبيل الله ماله، قيل: إن يكن ذلك موجودًا فهو ذاك وإلا فجائز أن يكون معناه كمثل سنبلة انبتت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة، إن جعل الله فيها ويحتمل أن يكون معناه في كل سنبلة مائة حبة، يعني إنها إذا هي بذرت انبتت مائة حبة، فيكون ما حدث عن البذر الذي كان منها، من المائة حبة مضافًا إليها؛ لأنه كان عنها)[٣].

ونخلص إلى أن الاختلاف في قوله تعالى: (سبع سنابل) عن قوله تعالى: (سبع سنبلات) يتجلى فضلًا عما تقدم فيما يأتي:

أولاً: إن الخطاب القرآني دائمًا يميل إلى تقريب الشيء إلى الذهن العربي المسلم، من باب الترغيب أو الترهيب، لأهمية الأمر، بأمثلة واقعية حسية، فيعمل هذا التمثيل على تنشيط ذهن السامع بطريقة الإيجاز على وجه لطيف. وورد التمثيل بما لا تحقق له في الخارج، وهو اشتمال السنبلة على مائة حبة، وفيه أن المثل كما نعرف لا يشترط فيه تحقق مضمونه في الخارج، وانبات

١)غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٣/٤٨.
٢) الطبيعة في القرآن الكريم، د. كاصد الزيدي: ٣٩١ ـ ٣٩٢.
٣ تفسير الطبري: ٣/٤١ ـ ٤٢.

الحبة الواحد سبعمائة حبة ليس بعزيز الوجود على الله -عز وجل- فقوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾[البقرة:٢٦١]، أي يزيد عل سبعمائة لمن يشاء، فهو الواسع لا مانع من جوده ولا محدد لفضله.

لذا هي كثرة معنوية، وإذا كانت هذه الكثرة المعنوية، فإننا نستطيع أن نزيد فيها من دون حدود للعدد، ثم أن السنابل وردت في خطاب إلهي يدل على كرم الباري-عز وجل-، لذلك فالكثرة تكون فيها طبيعية.

أمّا في سورة (يوسف)، فإنما بناؤها على اخبار الملك عن رؤياه (سبع سنبلات)، فلا طريق للحظ، قلة ولا كثرة ؛ لإنه اخبار برؤيا، فوجهه الاتيان، من أبنية الجموع ، بما يناسب المراد وهو قليل؛ لأن ما دون العشرة قليل، فافترق القَصْدَان، وجاء كل على ما يجب)[١]. أي أن السنبلات تعبر عن شيء حسي، في خطاب لرؤيا بشرية في تفسير حالة واقعية ستحدث، ولذلك اسْتعمِلَ هذا التحديد في العدد

ثانيًا: إن السياق العام في السورة ، كان له اضاءات على الصيغة نفسها، ففي سورة يوسف -عليه السلام-، لو كانت الصيغة المعبرة عن الرؤيا هي (سنابل) بدلًا من (سنبلات)، لما كان هناك توافق في سياق الآية، أو انسجام بين التراكيب، فهناك صيغ في الآي تناسب (سنبلات) معها، وهي (بقرات، ويابسات)، وهذا ما أشار إليه الدكتور. عبد الهادي خضير ، في أن لسياق الآية العام تأثيرًا في التراكيب، حتى ترد منسجمة معها[٢].

ثالثًا: ورد التمثيل بصيغة الجمع الدال على القلة في سورة (يوسف)؛ لأن في تأويلها تمثل عدد سنين الخير والنماء، وعدد سنين الجدب والقحط، لذلك تعطي صيغة القلة هذ اشراقة أمل تدل على انتهاء هذا الضيق أو العسر، أمّا لو وردت بصيغة الكثرة، قد تسبب الجزع، وقلة الصبر على ما سيصيبهم من قحط.

١ معترك الأقران في إعجاز القرآن: ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

٢) أستاذ في جامعة بغداد ـ كلية التربية للبنات، ضمن محاضرات الدكتوراه، ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٢.

رابعًا: أمّا ورود العدد (سبعة) دون غيره؛ فسببه أن العرب كانت تتفاءل به كثيرًا. لذلك كان يرد العدد أو مضاعفاته في القرآن الكريم للمبالغة، والتوسع دائمًا، أمّا في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾[التوبة:٨٠]، فلم يكن المقصود من العدد (سبعين) في الآية العدد الحقيقي المجرد، إنما كان للمبالغة في الشيء، ولم يرد العدد مجردًا إلا في آية واحدة، وهي الآية في سورة يوسف في رؤيا الملك؛ ولعل السبب في ذلك كونها رؤيا بشرية بصرية؛ لذلك كان العدد مجردًا. والله أعلم.

ونخلص القول: إلى أن السياق القرآني هو من يحدد وجهة المعنى أيًا كان نوعه ومبناه، مع العلم أن السياق يحدد معنًى واحدًا للفظ القرآني، في حين المعنى المعجمي يتعدد بتعدد سياقه، كما أن القرائن بأنماطها هي من تلعب وتحدد المعنى، ويصبح السياق جسرًا تعبر عليه الألفاظ ليس إلا، ومن خلال الدراسة والتحليل للفظ القرآني في ضوء ما ذُكر يتضح معناه الأصلي حسب وروده في السياق، والمعاني المعجمية المتعددة- إن وجدت- المنبثقة عنه .

لفظ:(عين)

جاء في الصحاح أن لفظة (العين) تدل على حاسة الرؤية، وهي مؤنثة؛ والجمع أعينٌ وعيون وأعيان، وتصغيرها (عُيينة)، ومنه قيل: ذو العينين للجاسوس، ولا تقل: ذو العوينين... وثمة معانٍ ودلالات وردت بلفظه وتعددت معانيه كالعين لعين الماء، والرُكبة، وعين الشمس، والدينار، والدُبدبان، والجاسوس....الخ[١].

(١) انظر: الصحاح:٥/١٧٤٠-١٧٤١. مادة (ع ي ن). ولسان العرب: ٦/٣٨٠-٣٨١.مادة (ع ي ن). والمعجم الوسيط٦٤١.

وفي المفردات أن (عين) يُقصد بها العين الجارحة.[١] ويظهر أنها دالة بلفظها على العين الباصرة، وما انبجس عنها من معانٍ ودلالات فهو يعود إلى السياق وما أسهمت به القرائن من تجلي للمعاني.

بيد أن المعنى الحقيقي والأصلي لها هو كونها آلة إبصار وما تفرع عن هذا من خلال سياقات متعددة ومتنوعة فهو يؤول إلى السياق التي ترد فيه، ولا مناص في ذلك مهما تحدد معناها، إلا عبر ورودها في السياق أيًا كان نوعه.

وفي التفسير الكبير "إن العين حقيقة في (العين) التي هي آلة الإبصار ومجاز في غيرها"، أي في عيون الماء؛ لأنها تشبه العين الباصرة التي تخرج الدمع ؛ أو لأن الماء الذي في العين كالنور الذي في العين، غير أنها مجاز مشهور صار غالبًا حتى لا يفتقر إلى القرينة عند الاستعمال إلا للتمييز بين العينين، فكما لا يحمل اللفظ على العين الباصرة إلا بقرينة، كذلك لا يحمل على العين الفوّارة إلا بقرينة، مثل: شربت من العين، واغتسلت منها، وغير ذلك من القرائن، ويقال: "عانه يعينه إذا أصابه بالعين، وعيّنه تعييناً، وعاينه معاينه وعيانًا، أى صار بحيث تقع عليه العين "[٢].

ويظهر مما سبق أن تنوع دلالات مفردة (العين) يؤول إلى تنوع السياقات، فاستعمال الكلمة في سياق ما، هو الذي يكسبها معنًى محددًا، " فمعنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، أو الطريقة التي تستعمل بها أو الدور والوظيفة الذي تؤديه"[٣].

والدلالات التي تجلت في سياق الآيات القرآنية لهذه المفردة اللغوية (العين) ولعلنا لا نحصيها ولكن نذكر **بعضًا منها:**

فالمعنى الأول: لهذه المفردة (العين)- أنها تأتي بمعنى الجارحة (الباصرة). ومنه السياق القرآني: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ**

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن: ٤٥١-٤٥٢، وفقه اللغة وأسرار العربية، الإمام أبي منصور عبدالملك بن محمد إسماعيل الثعالبي، عني بضبطه وتخريج أحاديثه، وقدم له وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، مطابع الصبور الحديثة، القاهرة، د.ت:٢١٨.

(٢) التفسير الكبير، للإمام تقي الدين ابن تيمية، تحقيق وتعليق: د. عبدالرحمن عميرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان: ١٠/ ٢٩٦، ودلالة السياق في القصص القرآني، د. العبيدي: ١١١.

(٣) انظر: علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر: ٦٨.

وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾[المائدة:٤٥]، وتأتي في السياق القرآني: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾[يوسف:٨٤]، بمعنى عمي بصره[١]، فسياق الآيات واضح لدلالة العين على العين الباصرة، ومنه أيضًا السياق القرآني: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾[القصص:٩]، و"قرة عين" بمعنى قرت عينه من القر وهو: البرد أي لم تسخن بالبكاء وقيل أُخذت من قر في المكان أي: لم تبك[٢]، فالعين المقصودة في الآية هي: الباصرة.

ويضفي السياق عليها دلالة مجازية وهي الشعور بالسرور والاطمئنان ويبرز هذا المعنى جليًا في قصة موسى في سورتي طه والقصص[٣]، وفي سورتي مريم والانبياء وأيضًا في سورة القمر[٤].

المعنى الثاني: بمعنى الرعاية والحفظ:

يظهر هذا المعنى جليًا في سياق قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾[طه:٣٩]، إذ نلحظ أن السياق يضفي على العين معنى الرعاية والحفظ لكونها جاءت في سياق امتنان الله(جل جلاله) على موسى (عليه السلام) والمعنى والله أعلم (ولتربي وتغذي بمرأى مني، بحفظي

(١)انظر: الكشاف، للزمخشري: ٢/ ٣٣٩ .
(٢)انظر: معاني القرآن، للنحاس ١٥٩/٥.
(٣) انظر: دلالة السياق في القصص القرآني: ١١٢.
(٤) انظر: تفسير البيضاوي: ٥/ ٢٦٩، ودلالة السياق في القصص القرآني: ١١٢ – ١١٤.

ورعايتي) لا أكِلك إلى غيري"[١]، وقيل(أتخذه لي على عيني، أي: على ما أردت وهويت)[٢]، ومما يماثل ويضاهي هذا المعنى ما ورد في سياق قوله: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾[هود:٣٧]، حيث صورت موقف المواجهة بين نوح والفئة التي آمنت به من جهة، والفئة المجرمة من جهة أخرى ويظهر من خلال سياق الآية تصوير ذلك المشهد وفيها أيضًا تصوير لرعاية الله(جل جلاله) لنبيه وحفظه له وللمؤمنين من قومه وما عليه إلا أن يصنع الفلك بمرأى ومراقبة ورعاية من الله، والله هو الذي يتكفل بحفظه ورعايته ويتولى تطهير الأرض من دنس الكفار، وحفظ الفئة المؤمنة، ويبرز معنى قوله تعالى "بأعيننا" بحفظنا نحفظه من أن تخطئ فيه أو يفسده عليك مفسد[٣].

ويعزز السياقات السابقة ما جاء في سورة القمر في سياق قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤﴾[القمر:١٤]، بمعنى بحفظنا وبمنظر ومرأى منا[٤]، بما أعطيناك من البصيرة والمعرفة وتجلى هذا المعنى من خلال وروده في السياق الذي هو قائم على القرائن داخل وخارج النصوص القرآنية.

المعنى الثالث: بمعنى منبع الماء:

يَبرُز هذا المعنى في سياق الآيات الآتية: في قوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٧٨.
(٢)انظر: مجاز القرآن: ١٩/٢.
(٣)انظر: تفسير البضاوي: ١٥٢/٤.
(٤)انظر: الجواهر الحسان:٢٣٥/٤.

﴿٦٠﴾[البقرة:٦٠]، وقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾[الأعراف:١٦٠]. يتضح أن دلالة (العين) هنا دلت على منبع الماء وهي دلالة جلية وواضحة ولا مجال فيها لتوارد أي معنى آخر من معانيها التي سبقت؛ لأن سياق الآيات في الحديث عن الاستسقاء ومن ثم أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا وسال منها الماء وعلم كل أُناسٍ مشربهم. و" يُقال: لمنبع الماء عين تشبيهًا بها لما فيها من الماء"(١).

وأن العين جاءت في كلتا الحالتين بدلالتها الأصلية وهو المعنى المعجمي للفظة، حيث تأتي بمعنى عضو الإبصار تارة وعين الماء تارة أخرى، إلا أن القارئ المتأمل لدلالة اللفظة سيجد حتمًا نفسه بين معنيين معنى أصلي، وآخر مجازي تفرع عنه بمرور الزمن وتطور الأحداث، ثمة علاقة ارتباط بين المعنيين تُلحظ من خلال القرائن اللفظية، وكذا قرينة السيولة، كون الع ين يسيل منها الدمع إثر بكاء أو ضحِك، وهي بتركيبها تحتوي على نسبة كبيرة من الماء، وبالمقابل عين الماء يسيل منها الماء إما بانفجار أو انبجاس ويجتمع المعنيان تربطهما قرينة لفظية هي (الحركة) أو ما يسمى بجريان الماء أو الدمع.

وكيفما كانت العلاقة بين العين الباصرة وعين الماء فإن دلالة السياق حاسمة في تحديد المعنى المقصود تحديدًا بينًا، وهذا ما نجده في دلالة (العين) على الماء، ولعل الآيات تتوارد والمعاني تتجلى في السياقات عارضة دلالات (العين) إذ قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾[القمر:١٢]، والظاهر أن السياق العام للآيات يدل على أن العيون هنا

(١)انظر: دلالة السياق في القصص القرآني: ١١٤.

تعنى منابع الماء الجارية؛ لأن السياق في تصوير عقاب الله لقوم نوح بالطوفان وتدفق الماء من عيون الأرض يقابل نزول الأمطار من السماء، وكأن السماء فتحت أبوابها لتصب الماء صبًا غزيرًا وتفجّرت الأرض بالماء وما هي إلا لمحة ويلتقي ماء السماء بماء الأرض ويحدث الطوفان[١]، ويعزز ذلك ما جاء في سياق الآيات في سورتي الشعراء والدخان حيث قال الله عز وجل: ﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾[الشعراء:١٣٤]، وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥﴾[الدخان:٢٥]. ومن خلال سياق الآيتين يظهر أن لفظ (عيون) يدل على النعيم الدنيوي وهو معطوف على لفظ جنات ويدل بدلالاته على منابع الماء[٢]، وسياق الحال يؤكد أن الجنات تقتضي وجود الماء.

الخاتمة:

يبدو إنه لكل جيل حاجته الملحة إلى فهم متجدد للقرآن، وهذا لا يتأتى إلا عن طريق دراسة دلالة الألفاظ ومتابعة المعنى التركيبي الذي يتألف من معاني المفردات في سياقاتها.

ولن أطوي صفحات هذا البحث حتى أجمل بعض النتائج التي خرجتُ بها من خلال دراسة هذا الموضوع والتي تتلخص في النتائج الآتية :

أولاً: لقد أظهر السياق القرآني قدرة تلك الألفاظ على قيامها بعدد من الوظائف الدلالية، حتى إنه لتأتي اللفظة بدلالة في السياق وتأتي بالدلالة المقابلة في سياق آخر، بل قد تحمل اللفظة الدلالة وما يقابلها في السياق نفسه، وفي هذا كله انزياح عن المعنى المعجمي.

ثانيًا: أن تنوع الدلالة وتعددها في السياق يدلُ على أن المعاني في الفكر اللغوي أكثر بكثير مما هي عليه الألفاظ. ولو ارتجلت في اللغة ألفاظٌ جديدة لمعانٍ في فكر واضعيها لوجدت لها معانٍ أخرى في سياقاتها اللغوية الأخرى.

---

(١) انظر: المصدر نفسه: ١١٤.

(٢) سورة الشعراء:١٤٧،٥٧.

ثالثًا: تحليل واستقراء الألفاظ أيًا كان نوعها أسماءً أم أفعالاً، يكمُن غرضها أو معناها في سياقها الخطابي وإن حقيقة الألفاظ في معناها، ومعناها في سياقها والقارئ أو السامع جزء لا يتجزأ من السياق.

رابعًا: يُرجح تتابع السياق معنى على آخر ويسقط أحيانًا بعض المعاني مبعدًا لها لعدم توافقها سياقيًا، وإن كان المعنى يحملها، ونظرًا لتعدد السياقات والمقامات، وتنوع المناسبات في بعض الأحيان فإن ذلك يعد خروجًا من الالتواء في المعنى، وتشويه النص، ويبقى السياق هو المحدد للمعنى قصرًا على جهة محدودة، ولا يمكن فصل النص عن سياقه أو اجتزاؤه، ولا يكتمل المعنى إلا في سياق تام كامل.

المصادر والمراجع:

- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط٤، المكتبة العصرية، بيروت ـ لبنان،١٩٨٨م.
- أثر السياق في توجيه المعنى المعجمي في القرآن الكريم، للدكتور/ قاسم مهدي أحمد قاسم النفيعي، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة أسيوط، مصر،٢٠١٦-٢٠١٧م.
- أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، دار صادر ـ بيروت، ١٩٧٩م.
- أسرار التكرار في القرآن، محمود بن حمزة الكرماني، دار الاعتصام، ١٩٨٧م وسماه البرهان في متشابه القرآن.
- أفعال الحركة في القرآن الكريم(الفعل الماضي دراسة دلالية)، رقية علي بن علي، أطروحة ماجستير، كلية التربية، جامعة عدن،١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
- البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبدالموجود، وآخرين،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط٢، ١٤٢٨ه- ٢٠٠٧م.
- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي (ت٧٩٤هـ)، تح: محمد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة البابلي الحلبي، مصر، ١٩٥٨م.
- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، ط١، ١٩٩٩م.

- التبيان فى تفسير غريب القرآن : شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصرى، تحقيق: د. فتحى أنور الدابولي، دار الصحابة للتراث، القاهرة، ط/١، ١٩٩٢م .
- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، المطبعة العلمية، النجف، ١٩٥٧م.
- التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٨م.
- تفسير البيضاوي المسمى، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبدالله بن عمر البيضاوي، تحقيق: عبدالقادر عرفات، العشاحسونة، دار الفكر، بيروت، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م.
- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
- تفسير الجلالين، للإمامين: جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، علق عليه: العلامة محمد كريم راجح، مكتبة النهضة ـ بغداد، ط١٩٨٨،٥م.
- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.
- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الريان للتراث، القاهرة.
- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، الفخر الرازي محمد بن ضياء الدين، دار الفكر، دمشق، ط١٤٠١ ،١هـ.
- تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف الإمام أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد الزمخشري، رتبه وضبطه وصححه عبدالسلام شاهين، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١٩٩٦م.
- تفسير غرائب القرآن، ابن قتيبة، عيسى الحلبي، (د. ت).

- تفسير غريب القرآن العظيم، أبو عبد الله محمد الرازي، تحقيق: حسين المآلي، أنقرة ط١، ١٩٩٧م .
- تفسير فضائل القرآن، ابن كثير إسماعيل الدمشقي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٦م.
- جامع البيان عن تأويل القرآن، الطوسي، البابلي الحلبي، ط٣،١٣٨٨هـ.
- الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد أبن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م .
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت (د، ت).
- دلالة السياق في القصص القرآني: د. محمد عبد الله علي سيف العبيدي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، اليمن، ط/١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى -عليه السلام- فهد الشتوي، أطروحة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ.
- دلالة السياق، إعداد ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي .أطروحة دكتوراه، مقدمة لكلية اللغة العربية، بجامعة أم القرى عام ١٤٢٤هـ .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم، والسبع المثاني: أبو الفضل محمود الألوسي، دار احياء التراث العربي، بيروت.
- الشعر الجاهلي في تفسير القرآن الكريم، دارسة توثيقية دلالية إسلوبية معجمية في شواهد ابن عباس وتفسيري الكشاف والقرطبي، د. عمر علوي بن شهاب، إصدارات تريم عاصمة الثقافة الإسلامية صنعاء، اليمن، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.
- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية إسماعيل بن حماد الجوهري (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبدالغفور العطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- الطبيعة في القرآن الكريم، د. كاصد ياسر الزيدي ، دار الرشيد - بغداد، ١٩٨٠م.
- العقد الفريد، تأليف أبى عمر أحمد بن محمد بن عبدربَّه الأندلسي، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.

- علم الدلالة، د. أحمد مختار عمر، مكتبة دار العروبة، الكويت، ط ١، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تح: مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، ١٩٨٠ - ١٩٨٥م.
- فقه اللغة العربية، د. كاصد ياسر الزيدي، دار الكتب للطباعة، جامعة الموصل، ١٩٨٧م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط١٤٣٥:٣٤ه- ٢٠٠٤م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري (ت٥٣٨هـ) دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، (د.ت).
- الكشاف عن حقائق غوامض التزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تصحيح : محمد عبدالسلام شاهين، دار الكتب العلمية ط١، ١٤١٥هـ.
- لسان العرب، ابن منظور، تح: محمد عبد السلام هارون، بيروت - لبنان، ١٩٨٨م.
- مجاز القرآن : أبو عبيده معمر بن المثنى اليتمي، عارضه بأصوله وعلق عليه : د. محمد فؤاد سزكين، الناشر: محمد سامى أمين الخانجى الكبتى، مصر.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي، دار الفكر، بيروت،١٩٦٦م.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، طبع: دار الفكر العربي، (د. ت)، القاهرة.
- معجم غريب القرآن مستخرجًا من صحيح البخاري، وضعه: محمد فؤاد عبدالباقي، طبعة دار الحديث.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: فضيلة الشيخ. أبوعبدالله مصطفى بن العدوي، مكتبة فياض للتجارة والتوزيع، المنصورة، مصر، ط١، ١٤٣٠ه-٢٠٠٩.
- المقاربة التداولية، فرانسواز أرمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الأداء القومي، الرباط، ماي ١٩٨٦.

- ملاك التأويل، القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل، أحمد ابن إبراهيم الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، هارون بن موسى القارئ، تحقيق: حاتم صالح الضامن، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، د.ت.
- Dictionnaire de linguistique et des sciences du langage, Dubois et Al., Librairie Larousse, 1994, P375.
- L'énonciation de la subjectivité dans le langage C.K.Orecchioni,(1980) , 2ème, Edition, Paris, Armand Colin, 1980, P185